نصوص مختارة للشيخ محمّد رشيد رضا

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

الحرّيّة واستقلال الفكر

أيّها الإخوان الكرام

إنّ المسائل التي نحتاج إلى البحث فيها واستجلاء غوامضها كثيرة جدًّا. فمِنَ الناس مَنْ إذا اقتُرِح عليه أن يخطب يبادر إلى الكلام في الموضوع الذي يتبادر إلى ذهنه، سواء كان مطابقًا لمقتضى الحال يُرجى أن يستفيد منه السامعون ما يصحّح أفكارهم أو يقوّم أعمالهم أم لا. ومنهم مَن يرى هذه الطريقة منتقَدَة، وأنّه لا بدّ أن يخاطب الناس بما يتعلّق بحالهم وما ينبغي أن يكونوا عليه في أفكارهم وأعمالهم، فلا يحثّهم على ما لا سبيل إليه، ولا يقرِّر ما لا يفهمون حقيقته.

مثال من ذلك: إنّ بعض الخطباء يقف فيقول: أيّها العثمانيّون عليكم بالاتّحاد، عليكم بالإئتلاف، إنّ الاتّحاد هو مُفِيضُ العمران ومُرقِّي الأوطان ورافع شأن الإنسان. ويكتفي بمثل هذه الخطابيّات المجمَلَة التي لا يعلم السامعون كيف يمكن العمل بها. فإن اتّحاد المختلفين في التربية والتعليم والعقائد والأفكار والأخلاق والتقاليد والعادات من الأمور التي لا يمكن أن تحصل بمجرّد الحثّ عليها ومدحها، وإنّما يجب بيانُ ما يشترك فيه مَن يُراد حثّهم على الاتّحاد، وإقناعهم بأنّ منافعهم ومصالحهم مرتبطة به، وأنّها إنّما تُحفظ وتنمو باتّحادهم واتّفاقهم، وتذهب أو تضعف بتخاذلهم وتفرّقهم.

أمّا أنا فأقول إنّ كلّ كلام صحيح المعنى لا يخلو من فائدة، والفكرة الإجماليّة لا تخرج من حيّز التفصيل إلّا بإبرازها بالقول أو بالكتابة، ومَن لم يستفدِ اليوم مِنَ الكلام الصحيح فائدة تامّة يُرجى أن يستفيد غدًا. فَلْيَقُلْ كلُّ أحد ما يرى أنّه حقّ نافع، وليقدّم الأهمّ على غيره وهو ما كانت حاجة الناس إليه أكثر. وإذا قيل لنا ما هو أهمّ ما نحتاج إليه الآن؟ قلنا إنّنا محتاجون إلى أشياء كثيرة من العلوم والأعمال لأجل أن ننهض لما نكون به أمّة عزيزة، ولكنّ نهوضنا يتوقّف على أمر عظيم لا يحصل بدونه. فما هو هذا الأمر الذي هو شرط للارتقاء في كلّ علم وكلّ عمل بحيث يلزم من عدمه العدم؟ ألَا إنّه هو الحرّيّة الشخصيّة واستقلال الفكر.

قد قلْتُ في بعض الخطب التي تكلّمت فيها عن الحرّيّة إنّ استعداد البشر للارتقاء ليس له حدّ يُعرف ولا غاية تُحدَّد، فإذا عاشوا ملايين من السنين يمكن أن يكونوا في ارتقاء مستمرّ لا ينقطع إذا كانت حرّيّتهم في العلم والعمل مصونة من عبث المستبدِّين، فهكذا ترتقي الأمم على قدر صيانتها واحترامها للحرّيّة، وتتخلّف عن الارتقاء بل ترجع إلى الوراء على قدر عبثها بالحرّيّة وتحكّمها في الباحثين والعاملين.

مضت [قضت] سنّة الله في البشر بأنّ الفكر يسبق العمل، فإذا كانت أفكار العقلاء والأذكياء مضغوطة ممنوعة من الحركة والنّمو فإنّها لا تكون مستقلّة. والأمّة لا تخطو خطوة واحدة إلى الأمام إلّا إذا أطلقنا العنان لجياد الأفكار، تجول في ميادين الكتابة والخطابة بلا حَجْر ولا ضغط، لا فرق في ذلك بين المسائل الدينيّة والإجتماعيّة والسياسيّة وغيرها.

يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا، لأنّ الفَلَاح متوقِّف على ظهور الحقائق، وظهورها يتوقّف على استقلال الأفكار وحرّيّة البحث والكتابة والخطابة، ولا يخاف على دينه مِنْ حرّيّة البحث إلّا مَنْ لا ثقة له بدينه، ومَن كان واثقًا بأنّه على الحقّ فإنّه يعلم أنّ مخالفته فيه لا تزيده إلّا قوّة وظهورًا. فقد نطق الكتاب العزيز بما هو ثابت عقلًا واختبارًا من أنّ الحقّ يعلو ولا يُعلى، وأنّه ما تصارع الحقّ والباطل إلّا وَصَرَعَ الأوّلُ الثاني (بل نقذف بالحقّ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)، (وَقُلْ جاء الحقّ وزُهِق الباطلُ إنّ الباطل كان زهوقًا).

علينا أن نبحث، بعد هذا، عن أنفسنا لنعلم هل نحترم استقلال الفكر وحرّيّة القول والعمل؟ هل قمنا بحقّ هذا الشرط الذي يتوقّف عليه كلّ مقوّمات الحياة الإجتماعيّة والسياسيّة وأسبابها؟ إنّ حكومتنا تركت الضغط على عقولنا وأفكارنا والحَجْر على ألسنتنا وأقلامنا لنكون أحرارًا في أقوالنا وأعمالنا فهل صرنا أحرارًا بالفعل؟

نعم، إنّ الحكومة تركت الإستبداد والإستعباد وأباحت لنا الحرّيّة طوعًا أو كرهًا، ولكنّنا ما قبلناها، فإنّ الأفكار لا تزال مضغوطة مَحْجُورًا عليها أنْ تبرز من مضيق الدماغ إلى فضاء الوجود الخارجيّ، والحرّيّة الشخصيّة مهدَّدة لا من الحكومة بل منّا أنفسنا.

في البلد حوادث حيويّة كثيرة لا يكتب أحد من أصحاب الجرائد رأيه فيها بالحرّيّة. ولماذا؟ أيخاف من "المراقب" أن يُرَجِّحها[1] له؟ لا. إنّ الجرائد لا تُعرَض الآن على المراقبين كما كانت تُعرَض في زمن استبداد الحكومة، ولكنْ ما سقط مُراقب الحكومة إلّا وتقاسم مثل عمله من لا يُحصى من دهماء الأمّة، يفتاتون[2] على أصحاب الجرائد وكتّابها وعلى الحكومة نفسها، وربّما كان هذا الإستبداد أشدّ وطأة وأثقل ضغطًا من استبداد الحكومة.

إنّ جرائد بيروت كان لها مدير واحد لسياستها هو المُرَاقِب، وكانت نسبة أصحابها ومحرّريها إليه كنسبة محرّري الجرائد الكبيرة في البلاد الحرّة إلى رئيس التحرير أو مدير السياسة. فكانوا إذا أرادوا كتابة شيء يتحرّون أن يكون بحيث يرضيه، وقد عَرفوا ما يرضيه ويجيزه، فلم تكن مراعاته متعذّرة عليهم، ولكن يتعذّر عليهم الآن أن يعرفوا ما يرضي هؤلاء المراقبين الذين حلّوا محلّه، لأنّ عقولهم وآراءهم ليس لها قاعدة تُرْجَع إليها ولا ميزان تُوزَن به. فهل يمكن أن ترتقي الصحافة أو الأفكار في بلاد يفتات على حَمَلة الأقلام وأرباب الأفكار فيها كلّ أحد، حتّى البحّار والحمّال وبائع الحمّص والفول!!

إنّنا قد تغنّينا باسم الحرّيّة في أيّام إعلان الدستور، وألقينا الخطب الكثيرة في وصفها، وأنشدنا القصائد العديدة في مدحها والتغزّل بها، وكان هتاف الجماهير للخطباء والشعراء، يعلو في الجوّ حتّى يبلغ عنان السماء، وكتبنا ذلك الاسم الجميل "الحرّيّة" بالخطوط

[1] رَمَّج الكاتب سطوره ويُرَجِّحها: أفسدها بعد كتابتها.]

[2] يفتاتون على فلان في الأمر: يحكمون عليه.]

الجميلة، وزيّنا به البيوت والمعاهد العامّة والخاصّة والحدائق، فظهرنا بمظهر العاشق الولهان لهذه الحرّيّة الجميلة، ولكنّني أخشى أن نكون في عشقنا لها كعاشق أمّ عَمْرو؟ ولعلّ بعض الحاضرين لا يعرف خبر هذا العاشق فأذكره إعلامًا له وتذكيرًا لغيره.

مرّ بعض الناس بصديق له مرّة فرآه على غير ما يعهده: رآه قلقًا مضطربًا فسأله عن حاله، فقال: إنّني عاشق ولهان لا يقرّ لي قرار، ولا يطيب لي اصطبار، ولا يهنأ لي طعام، ولا يزور جفني منام. قال له صاحبه: مَن عشقتَ؟ قال: عشقْتُ أمّ عمرو، أجمل نساء العصر، قال: من هي أمّ عمرو ومتى رأيت وجهها المليح، فبرّح بك هذا التبريح؟ قال لا أدري من هي ولا لمحتها عيني وإنّما سمعت رجلًا يُنشِد في الطريق:

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرمة ردّي عليّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي لولا أنّ أمّ عمرو هذه أبرع النساء جمالًا وحُسنًا، وأوفرهنّ من القسامة قسمًا، لما قال الشاعر فيها هذا القول فعشقتُها.

وقد طال على هذا العاشق الأحمق عشق تلك المعشوقة المجهولة حتّى مرّ به صاحبه يومًا، فإذا هو يبكي ويندب قد ساورته الأحزان، وواثَبَتْه الأشجان، فسأله ما دهاك؟ فصاح أوّاه واويلاه! لقد بُلِيْتُ بأشدّ المصائب وأعظم النوائب، فقد ماتت أمّ عمرو. وغلبه النشيج وأخذ بالنّحيب، ولمّا سكت عنه الرَّوْعُ قال له: ومَن أخبرك بموتها فهل رأيتها وعرفتها؟ قال لا ولكنّني سمعت الشاعر ينشد في الطريق:

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرو فلا رجعَتْ ولا رجع الحمار

فقلت لولا أنّها ماتت لرجعت ولما قال الشاعر هذا القول.

نعم إنّني أخشى أن تكون حرّيّتنا المعشوقة، هي أمّ عمرو الجهولة، فإنّ الحرّيّة الحقيقيّة قد تعرّفت إلينا فنكرناها، ورغبت فينا فرغبنا عنها، وأحبّت القربَ منّا فاخترنا البعد عنها، وإلّا فما بال الكثيرين منّا، يسلّطون العامّة على من يبدي رأيًا يخالف رأيهم أو هوى أنفسهم، يهدّدونه ويهينونه، وإذا لم يوجد له عصبة تمنعه منهم فإنّهم يضربونه، ومتى كانت الحكومة المستبدّة تضّطهد حرّيّة الفكر والعلم أشدّ من هذا الإضطهاد، وتحاول استعبادًا أقبح من هذا الاستعباد. أيّ العبودتين أذلّ، العبوديّة للحكومة أم العبوديّة للعامّة؟

كان الخطباء والشعراء يقولون في أيّام عيد الحرّيّة في مدح الأمّة نحوًا ممّا يقولونه في مدح الحرّيّة نفسها لإظهار التناسب بينهما، ولا يزال كثيرون منهم يُسمعوننا مدح أنفسنا، ويشيدون بفضلنا وفضل سلفنا، ويتمثّلون بقول شاعرنا: نَبْنِي كما كانت أوائلنا... الخ. أمّا أخوكم هذا فيقول إنّ ما كان يُقال في أيّام عيد الحرّيّة لا ينبغي أن يُقال اليوم ولا في كلّ يوم. إنّ الأعياد في عُرْف الناس هي أيّام السرور والإبتهاج، فيحسن أن يُتناسى فيها ما يسوء ويُتحرَّى فيها ما يسرّ، وهذه أيّام الجدّ والعمل فيجب أن نعرف فيها ما نحتاج إليه في هذا العصر لنجاريَ الأمم العزيزة القويّة، الراتعة في بحبوحة المدنيّة، لا أن نمنّي النفس بالأقوال التي يلذّ سماعها، ونترك السنن التى نرقى باتّباعها.

يا قوم إنّنا مرضى ومن كَتَمَ داءه قتله، إنّنا مرضى ويجب علينا أن نُداوي أنفسنا، إنّ الأدوية لا يُقصد بها اللذّة، بل يُقصد بها المنفعة. هل سمعتم أنّ الأطبّاء يداوون المريض المُدْنَف[1] بإطعامه اللحوم المعالَجة بالبقول والأفاويه والكنافة والبقلاوة والأشربة المثلوجة؟ لا، لا، إنّهم يداوونه بالمسهّلات البشعة الطعم والكينا المرّة، وربّما داووه بالسكين ينال شيئًا من بدنه. وكذلك تكون أدوية الأمراض النفسيّة. وإنّه ليسوءني أن أصرّح لكم بما يؤلمكم، ولكنّها الحقيقة لا بدّ منها وإن كانت مرّة كالدواء: "أخوك من صَدَقك لا من صدَّقك".

إنّ من فَضْل الحرّيّة علينا أن صرنا قادرين على البحث عن مرضنا، وعلى الإجتهاد في معالجته. فيجب أن نعرف قيمة هذه النعمة، وأن نشكر الله تعالى عليها بالعمل الذي نستفيد به منها.

أعود فأقول إنّنا لا يجوز لنا أن ندّعي أنّنا عرفنا الحرّيّة، وأنّنا نقدّرها قدرها إلّا إذا كنّا نحترم استقلال الفكر، فلا نعارض أحدًا في إبداء رأيه، وإظهار علمه باللسان أو القلم، ولا يمكن أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام بدون هذا.

فعليكم أيّها الفضلاء المحبّون لخير أمّتكم وتقدّم بلادكم أن تنصروا الإستقلال الذاتيّ والحرّيّة الشخصيّة، وأن تبذلوا جهد المستطاع في بثّ هذا الفكر في طبقات الأمّة، وتُقنعوا أولئك الذين نسمع أخبارَ افتياتهم على الكتّاب وأصحاب الجرائد، بأنّ عملهم هذا ضارّ ببلادهم، وأنّ الذين يغرونهم بذلك هم أهل الأهواء الذين يتبعون حظوظ أنفسهم ولو في ما يضرّ بلادهم.

أنصروا حرّيّة البحث والطباعة كي تتجلّى للأمّة الحقائق، فتعرف ما يضرّها وما ينفعها، ولكي تترقّى فيها العقول الكبيرة بعد رفع الضغط عنها. إنْ تعملوا هذا تخدموا بلادكم أجلّ خدمة. وأراني أطلْتُ عليكم في هذا الكلام الحارّ مع حرارة الجوّ بكثرة الأضواء وازدحام الناس فحسبي هذا والسلام.

الشيخ محمّد رشيد رضا،

الحرّيّة واستقلال الفكر، نقلًا عن: سَعِيد، أدونيس، خالدة (اختيار النصوص وتقديم)، **ديوان النهضة، محمّد رشيد رضا، دراسات موثّقة بالنصوص تمثّل رؤية جديدة للنهضة العربيّة**، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٣، ص ٢٢٧-٢٣٣.

###

استعدادي الشخصيّ

كنْتُ مِنَ الصغر قليل الرغبة في اللعب، شديد الحياء، ولهذا امتنعت من أوائل سنّ التمييز من السباحة مع الأولاد في البحر، ودارنا القديمة على شاطئه، نرى السمك فيه من نوافذها عند سكونه في الصيف، وتتكسّر أمواجه على صخرة أمام الدار الثانية عند هياجه في أيّام الشتاء، فكنت أنزع ثيابي وراء صخرة تسترني، وأسبح دائمًا أو في الأغلب منفردًا، مئتزرًا، ولهذا لم أُتقن السباحة لأنّ سبب إتقانها هو المباراة في الأبعاد في البحر وفي السرعة.

[1] الذي ثَقُلَ مرضُه ودنا من الموت.]

نفعني الحياء من ناحية الأدب وصيانة العُرض واللسان، فلم أنطق بشيء من كلام المجون والفحش، ولم أجهر بقراءة شيء ممّا في الكتب منه، ولم أسمح لأحد أن يتكلّم معي بشيءٍ ممّا يتسامح به الأدباء من ذلك، وأضرَّني هو وحبّ العزلة بما جعلاني كثير النسيان لأسماء الناس لعدم عنايتي بمعرفتهم. وقد عشْتُ بضع سنين بين جماعة من طلبة العلم، ولم أعرف أسماءهم كلّهم، ومِن أَعْلَم زملائي في طلب العلم بذلك الأستاذ العالِم الأديب الشهير الشيخ عبد القادر المغربي، عضو المجمع العلميّ في دمشق، وهو من أَعْلَمِهم بمبالغتي في التزام الصدق، فإنّني تحدَّيته بأنّه إذا حفظ عليَّ كذبة واحدة، كان له حكمه عليَّ فيها. وإنّما كان هذا التحدّي لأجعله رقيبًا عليَّ في تربيتي لنفسي، وكنت وما زلت أكلِّف كلّ مَن أعاشره أن يكاشفني بما ينتقده على أخلاقي وآرائي، كما أطالب قرّاء المنار في كلّ عام بانتقاده.

وكنت أُوصف بالذكاء النادر، وأسمع العلماء والوجهاء يحثّون والدي على العناية بتعليمي، ويبشِّرونه بما يرجون لي من النجاح والنبوغ في العلم. وكنت أستغرب هذه المبالغة، لأنني أراني غير سريع الحفظ، إذ كان الحفظ معيار الذكاء عندي، وكان أخي السيِّد صالح أسرع منّي في الحفظ، وقلَّما حفظْتُ أكثر من بيت واحد من الشعر من سماعه مرّة واحدة، ولمّا شرَعْتُ في طلب العلم كان الطلبة يكتبون تعريفات لكلّ علم، يحفظونها بحروفها لأجل الإمتحان، ولم أكن أعني معهم بذلك، إنَّما كنت أعني بفهمها حقّ الفهم، وبالقدرة على التعبير عمّا أفهمه، وافق اللفظ المكتوب أو خالفه إلّا ما لا بدَّ من حفظه بلفظه بأمر المدرسة: كالألفيّة، ومتن السلَّم في المنطق، وجوهرة التوحيد، وبعض مقامات الحريري. كنت أجلس في درس النحو عن يمين الأستاذ، وأبدأ بإسماعه أبيات الألفيّة المفروض حفظه كلّ يوم، فإذا جاء الدرس ولم أكن حفظتها لقلّة الاهتمام به، أتأخَّرُ عن الدخول إلى أن يبدأ الطلبة بالإسماع، فأحفظ منهم، وإنّما كنت سريع الفهم، حتّى إنّني كنت أتألَّم ويضيق صدري من إعادة الأستاذ للمسألة التي يقرِّرها، وكنت قويّ الذاكرة والإستحضار لِما أقرأ وأسمع، ولا أزال كذلك ولله الحمد، ولكنَّني ضعيف الإستعداد لحفظ الجزئيّات كالأعلام والأرقام والحوادث، التي لا تضبطها قاعدة كلِّيّة أو غرض عامّ. وكذلك حوادث التاريخ الجزئيّة، وإنَّما أعني بفلسفتها وأسبابها ونتائجها العامّة، وزادني ضعفًا على ضعفي في هذا قلّة العناية بمعرفة الناس، وكلّ ما أعتقد أنَّ ليس لي فيه فائدة علميّة أو دينيّة.

ولذلك لم أُعنَ باللغة التركيّة ولا الفرنسيّة، وإنْ حفظْتُ كلَّ ما فُرض عليَّ من دروسهما في المدرسة الوطنيّة، ثمَّ ندمت على الثانية بعد أن علمت أنَّ لها فوائد كثيرة في خدمة الإسلام.

فجملة القول في استعدادي للعلم، إنَّني سريع الفهم، قويّ الحفظ للمعاني والمعقولات وما له ترتيب معقول، فكان علم المنطق أسهل العلوم عليَّ، إلّا التمثيل في أبواب القضايا والقياس له بحروف المعجم، ولا سيَّما نقائض القضايا الموجّهات وعكوسها. زار طرابلس مرّة طالب عَلَمٌ مصريّ، اسمه الشيخ مرعي، كان لطيف المعاشرة والمذاكرة، رأيته مع إخواننا الطلبة يتكلَّمون في مسئلة من المنطق غير واقفين عليها، فذكرت لهم ما أفهمه. فقال الشخ مرعي متعجِّبًا: الله! إنَّه يحفظ حاشية الخفيّ على شرح السلَّم باللفظ والمعنى! على أنّني لم أحفظ حروف الجرّ في غير الألفيّة إلّا بتكرارها مرارًا كثيرة.

ومثلها أوائل سورة التكوير لأنّني لم أفهمه لنسق الشرطيّات فيها ترتيبًا معقولًا، وعُنيت بحفظ القرآن وحدي أي بدون[1] أستاذ أُعيد عليه ما حفظت، فحفظت البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، ثمَّ شُغلت عن إتمام حفظه بطلب العلم، وحفظت المفصّل كلّه لأجل قراءة طواله في صلاة الفجر، وسائره في سائر الصلوات، ورأيتني أحفظ بعض السور كالكهف، ومريم، وطه، ويوسف، من غير تعمُّد لحفظها.

الشيخ محمّد رشيد رضا،

فصل في خلاصة من تاريخ صاحب المنار، نقلًا عن: أرسلان، شكيب، **السيّد محمّد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، الجزء الأوّل، الطبعة الأولى، المختارة، الشوف، لبنان، الدار التقدميّة، ٢٠١٠، ص ٤٩-٥١.

###

نشأتي العلميّة

تعلَّمت في كُتَّاب قريتنا (القلمون) قراءة القرآن، والخطّ، وقواعد الحساب الأربع، ثمَّ أُدخِلت في المدرسة الرشديّة في مدينتنا (طرابلس الشام)، وهي مدرسة إبتدائيّة للدولة، يُدرَّس فيها الصرف، والنحو، والحساب، ومبادي الجغرافية، وعلم الحال "العقائد والعبادات"، واللغة التركيّة، واللغة العربيّة، ولكن جميع التدريس فيها باللغة التركيّة. فأقمْتُ فيها سنة، ثمَّ لم أعد إليها لأنّني لم أُحبّ أن أخدم الحكومة.

ثمَّ دخلت المدرسة الوطنيّة الإسلاميّة، وهي أرقى من المدرسة الرشديّة، وجميع التعليم فيها باللغة العربيّة إلّا اللغتين التركيّة والفرنسيّة، وتُدرَّس فيها العلوم العربيّة، والشرعيّة، والمنطق، والرياضيّات، والفلسفة الطبيعيّة، وكان أستاذنا العلّامة الشيخ حسين الجسر الأزهريّ، وهو المدير لها بعد أن كان هو الذي سعى لتأسيسها، لأنّ رأيه أنَّ الأمّة الإسلاميّة لا تُصلَح ولا ترقى إلّا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصريّة الأوربيّة، مع التربية الإسلاميّة الوطنيّة تجاه التربية الأجنبيّة في مدارس الدول الأوربيّة والأميركانيّة، ولكنّ الحكومة العثمانيّة لم تقبل أن تعدّها من المدارس الدينيّة التي يُعفى طلّابها من الخدمة العسكريّة، فكان ذلك سببًا لإلغائها، فحُرمت مدينة طرابلس وملحقاتها من فوائدها بجهل الدولة وغباوتها. وتفرَّق طلبتها، فذهب بعضهم إلى مدارس بيروت المختلفة، وانقطع بعضهم للطلب في المدارس الدينيّة في طرابلس، وأنا منهم.

ولم يرضَ لي والدي بالإقامة في المدينة، لطلب العلم، إلّا بعد بلوغي سنّ الرشد وثقته بديني وأخلاقي، لأنّه كان يخاف عليَّ من معاشرة أهل المدينة "البندر".

[1] أخذ عليَّ أحد الإخوان إدخالي الباء على "دون"، وقال إنَّ الأصحّ فيها أن تأتي مجرّدة من الباء أو بإدخال "مِن" فيقال "من دون"، وأجبته بأنَّ هذا قد قيل واشتهر ولكنَّه فيه نظر، فإنَّ "دون" تأتي اسمًا وتأتي ظرفًا، وما على الاسم أن يُجرّ بالباء. وقد أجاز ذلك الأخفش ومكانه في النحو مكانه. وأنت ترى هنا أنَّ السيّد رشيدًا كان يقولها. ومن نحاة هذا العصر الراسخين الشابّ العلّامة السيّد مصطفى جواد العراقيّ يجيز أيضًا هذا الإستعمال ويستحسنه.

وكنت اجتنبْتُ معاشرة الناس فيها إلّا أفرادًا قليلين جدًّا من أصدقائنا. ومن أمثلة اجتنابي للريبة، أنّني كنت أشتري شيئًا من تاجر تكرَّر تساهله معي في المساومة، فقال لي: وحياة عينيك. فنفرت منه ورميت ما كان بيدي، وما عدت أقف عليه ولا أنظر إليه، ولا أمرّ أمام دكّانه في يوم من أيّام عمري.

وكنت من قبل طالب العلم، شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوُّف، وكان أعجب كتب التصوُّف إليَّ إحياء علوم الدين، لحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، فهو الذي طالعته كلّه، وكنت أُكْثِر مراجعته وقراءة بعض أبوابه عَوْدًا على بدء، ثمَّ صرت أقرأه للناس، وكان له أكبر التأثير في ديني، وأخلاقي، وعلمي وعملي، وإنَّه لتأثير صالح نافع في أكثره، ضارّ في أقلّه، وقد عالجت الضارّ منه بعد العلم به، فما كان فيه من خطإٍ علميّ فقد رجعت عنه بالتدريج بعد اشتغالي بعلم الحديث، ولا سيَّما عقيدة الجبر، والتأويلات الأشعريّة والصوفيّة، والغلوّ في الزهد، وبعض العبادات المبتدعة. وأمّا تأثيره الوجدانيّ في الزهد، واحتقار الدنيا، والمتكالبين عليها، ووظائف الحكومة، فلم أستطع الإعتدال فيه. ففضلًا عن التقصّي منه، ومن الزهد في الشهرة والمدح، فكَمْ مُدِحْتُ بقصائد لم أقرأ منها إلّا أبياتًا قليلة، ولم أنشر منها شيئًا. ولم تجنح نفسي قَطّ إلى تبليغ الجرائد شيئًا عنّي بالحقّ، لتنشره حتّى ما له شأن تاريخيّ، ومنه ما لقيْتُ من حفاوة الصدر الأعظم وكبار الوزراء والعظماء وجمعيّة الاتِّحاد والترقّي في الآستانة، وما هو أعظم من ذلك من حفاوة العلماء والكبراء بي في الهند. ولو عُنيْتُ بإيصال ذلك إلى الجرائد في مصر وسورية في وقته، لنشرَتْهُ، لأنَّ أكثر أصحابها ومحرِّريها من أصحابي.

الشيخ محمّد رشيد رضا،

فصل في خلاصة من تاريخ صاحب المنار، نقلًا عن: أرسلان، شكيب، **السيّد محمّد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، الجزء الأوّل، الطبعة الأولى، المختارة، الشوف، لبنان، الدار التقدميّة، ٢٠١٠، ص ٥١-٥٣.

###

التجديد والتجدُّد والمجدِّدون [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّها السادة

عَهِدَتْ إليّ جمعيّة الرابطة الشرقيّة بأن ألقي على حضرتكم، في هذه الليلة، محاضرة في موضوع التجديد والتجدُّد والمجدِّدين، كما تفضّل زميلي في عضويّة إدارتها الدكتور منصور فهمي ببيانه لكم باسمها، فأرجو من حضرتكم الإصغاء والإغضاء عن التقصير.
وأبدأ بالتمهيد للموضوع بمقدّمة في بيان الحاجة إلى شرحه وتمحيصه فأقول:

[1] قَدَّمَتِ "المنار" للمحاضرة بقولها:
"محاضرة ألقاها صاحب هذه المجلّة في نادي الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة، باقتراح جمعيّة الرابطة الشرقيّة في إحدى ليالي رمضان سنة ١٣٤٨، وقد حضرها الجمّ الغفير من العلماء والأدباء وطلبة العلم بالأزهر ونجباء المدارس العالميّة، وفُضْلَيات النساء. وكذا بعض فُضَلاء المستشرقين من الشعوب الأوربيّة، وقد سئلوا بعد الفراغ منها عن رأيهم فيها، فشهدوا لها بالإعتدال"، المنار: جزء ١٠ ، مجلّد ٣١(تمّوز ١٩٣١)؛ جزء ١، مجلّد ٣٢، (أكتوبر ١٩٣١)؛ جزء ٣، مجلّد ٣٢ (آذار ١٩٣٢).

المقدّمة التمهيديّة في حاجتنا إلى التجديد بأنواعه

في هذا العصر المضطرب بأنواع الإنقلاب الإعتقاديّة والفكريّة والسياسيّة والشيوعيّة والبلشفيّة. في هذا العصر القَلِق بالفوضى الدينيّة والأدبيّة والإجتماعيّة، في هذا العصر المهدَّد بالثورة النسائيّة، ونقض ميثاق الزوجيّة، وانقطاع سلك الأسرة، ووشائج الرحم والقرابة، في هذا العصر الذي نجمت فيه قرون الزندقة، والإباحة المطلقة، والهجوم على مقوّمات الأمّة من دين ولغة وأدب، ومشخَّصاتها من عادات وزيّ وحَسَب، حتّى لا يبقى فيها شيء ثابت يُرَبّى عليه النشء وتحترمه النابتة.

في هذا العصر الذي أجملتُ وصفَه – وعندكم تفصيله – كثر اللهج بيننا بلفظ الجديد والتجديد والمجدِّدين، ولعمر الحقّ إنّنا لفي أشدّ الحاجة إلى التجدد والمجدِّدين، فإنّه لم يبقَ عندنا شيء يحفظ شخصيّتنا القوميّة، ومقوّماتنا المِلّيّة، ويرتقي بنا في معارج الحياة الإجتماعيّة، إلّا وقد سُحِلَت مريرته، وانفصمت عروته.

أمّا ما كان عندنا من حَسَبٍ قديم، ودين قويم، وحضارة زاهية، ومُلك عظيم، فقد أخلقناه وأبليناه، بل هجرناه فنسيناه، وأمّا ما حاولنا من اقتباس طريف، وانتحال حديث، فإنّا تشبّثنا بأهدابه، ولم ننسج شيئًا من أثوابه، فكلّ ما لدينا من القديم والجديد، فهو من قشور قشور التقليد، كقشرة اللوز والجوز الخارجيّة الظاهرة، التي تغشى القشرة الخشبيّة الباطنة، لا غناء به في نفسه، ولا هو حفّاظ لشيء من اللباب في داخله.

فإنْ كان أَزْهَرُنا ومعاهدُنا الدينيّة في حاجة إلى الإصلاح لتجديد هداية الدين، فمدارسنا الأميريّة والأهليّة أحوج إلى الإصلاح لتجديد حضارتنا المدنيّة، وإعادة استقلالنا، وإقامة سائر مصالحنا، فإنّ ما ظهر من فساد التربية والتعليم فيها شامل للقسمين: الإيجابيّ والسلبيّ. وأمّا ما نشكو من خلل المعاهد الدينيّة فمعظمه سلبيّ محض، وسنبيّن ضرره بعد. ولا يزال أهل الرأي والفهم من الأمّة يشكو من كلّ منهما، ويقترحون الإصلاح بعد الإصلاح لهما.

نحن نحتاج إلى تجديد إستقلاليّ كتجديد اليابان، ترتقي به مصالحنا الإقتصاديّة والعسكريّة والسياسيّة، ونُنْمي به ثروتنا الزراعيّة والصناعيّة والتجاريّة. ونكون به أمّة عزيزة ودولة قويّة، مع حفظ مقوّمات أمّتنا من دين وثقافة وتشريع ولغة، وحفظ مشخَّصاتها القوميّة من زيّ، وعادات حسنة، وأدب.

لا إلى تجديد تقليديّ كتجديد الدولة العثمانيّة الذي انتهى بتمزيق سلطنتها (أمبراطوريّتها) الواسعة، ثمّ بزوالها من الوجود، ومحو رسمها من مصوَّر العالم الجغرافيّ-- ولا كتجديد الدولة المصريّة الذي بُدئ به في عهد مؤسّسه محمّد علي الكبير إستقلاليًّا، ثمّ استحال تقليديًّا، فانتهى بالاحتلال، وفَقْدِ الإستقلال، ولو استقام على خطّته الأولى لصارت به مصر سلطنة عظيمة مؤلّفة من شطر أفريقية الشرقيّ، وشطر آسية الغربيّ، ولأعادت مجد الحضارة العربيّة، ونيطت بها زعامة الأمّة الإسلاميّة، ولاتزال مستعدّة لهذا، وما عليها إلى أن تأخذ له أُهبته، وتسعى له سعيه، ثمّ تطلبه في إبّانه، وتأخذ بربّانه وعلى عرشها اليوم ملك يُظهِر من الإستعداد لهذا ما يعلمه الجميع.

نعم نحن في حاجة إلى هذا التجديد المجيد، الجامع بين الطريف والتليد، وإلى مجدِّدين في العمران كمحمّد علي الكبير، وفي العلم والحكمة كمحمّد عبده وجمال الدين، لا إلى تجديد الإلحاد والإباحة، والتهتّك والخلاعة، والدعوة إلى الرذيلة باسم الأدب المكشوف، والتنفير من الفضيلة بدعوى الحرّيّة، وتحرير المرأة الشرقيّة، وتقليد الحضارة الغربيّة، فإنّ كلّ هذه المفاسد قديمة لا جديدة، كما يعلمه المطّلعون على تاريخ أثينة ورومية وغيرها من عواصم الشعوب القديمة ، وهي التي أَضعفَت دولها وذهبت

باستقلالها (وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُتْرَفِيها فَفَسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمّرناها تدميرًا) أي أمرناهم بالطاعة والفضيلة، ففسقوا عن أمرنا إلى المعصية والرذيلة فآثروا شهواتهم الخاصّة، على النهوض بالمصالح العامّة، فحقّ عليهم قولنا (لنهلكنّ الظالمين) وقولنا (وما كنّا مهلكي القرى إلّا وأهلها ظالمون) وقولنا (فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون) وقولنا (وما كان ربّك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون) أي ما كان ليهلكهم بظلم منه لهم وهم مصلحون في أعمالهم.

حصر موضوع المناظرة في بضع قضايا

وإنّني، بعد هذا الإجمال التمهيديّ، أحصر موضوعها في بضع مسائل أو قضايا:

١) في معنى التجدُّد والتجديد، والمقابلة بين القديم والجديد، والتنازع بين الطريف والتليد، والمفاضلة بين المتقدّمين والمتأخّرين، وهو بحث لا يخلو من فكاهة وأحماض، في أثناء هذا الموضوع الحِرِّيف الحمَّاز[١].

٢) في فضل الشيء في ذاته وصفته، ودرجة الإنتفاع به، ومزيّته في قدمه أو جدّته.

٣) في الحاجة إلى التجديد الدينيّ والتجديد الدنيويّ، وحكم الإسلام فيهما، وحثّه عليهما.

٤) في المجدِّدين في الإسلام، والتجديد الذي سنَّه حكيم الشرق [جمال الدين] الأفغانيّ والأستاذ الإمام المصريّ [الإمام محمّد عبده].

٥) في أنواع الإصلاح الجديد وعدم التعارض فيه مع الدين.

٦) الأحزاب الثلاثة في المسلمين: الفقهاء المقلِّدون الجامدون، المادّيّون السياسيّون والمصلحون المعتدلون، وما يقابلهم في الغرب من الأحزاب والجمعيّات الدينيّة.

٧) في القاعدة التي ينبني عليها الاتّفاق بين الذين يخدمون أمّتهم ووطنهم بالإخلاص على ما يكون بينهم من اختلاف في العُرْف والمشرب، أو الدين والمذهب.

الشيخ محمّد رشيد رضا،

التجديد والتجدُّد والمجدِّدون، نقلًا عن: سَعِيد، أدونيس، خالدة، (اختيار النصوص وتقديم)، **ديوان النهضة، محمّد رشيد رضا، دراسات موثَّقة بالنصوص تمثّل رؤية جديدة للنهضة العربيّة**، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٨٢، ص ٢٣-٢٦، ٣١-٣٢.

[١] الحِرِّيف، بكسر الحاء وتشديد الراء، الذي يلذع اللسان بحَرَافته وهو هنا مجاز، ويرادفه الحَمَّاز وهو مبالغة حامز، فطَعْم الحَمْز قريب من طعم الحَرَافة.]